شهريات

بقلم رئيس التحرير

« الآداب » في عامها الـ ٢٣

اثنان وعشرون عامـا ...

نغمض اعيننا ونفتحها : أصحيح ان هذه الاعوام كلها قد انفضت من عمرنا ومن عمر هـذه المجلـة ؟ وكيف استطاعت « الآداب » ان تصمد حقا للعواصف والاعاصير التي اقتلعت كثيرا من المجلات الادبيـة فـي السنوات الماضية ؟ وهل تراها قادرة على ان تمضي بعيدا في هذا الدرب الطويل الشاق ؟

أغمض عينـيّ وافتحهمـا وانا جالس في مكتب « الآداب » انظر الى مجموعاتها الاثنتين والعشرين، مصفوفة بثوبها الجلدي الاسود ، في خزانة صغيرة معلقة علـى الجدار المقابل .. أحدّق في اسم المجلة ، فما تلبث عيناي ان تغيما ، وتضيع الرؤية في ضباب ربع قرن من الزمن .

كيف لمعت الفكرة ، اول مرة ، وانا جالس في مكتبة السوربون بباريس ربيع ١٩٥٠، وكيف صممت على اصدار المجلة فور انتهائي من مناقشة رسالة الدكتوراه ، وكيف كتبت لصديقيّ صاحبي دار العلم للملايين اعرض عليهما الفكرة واطلب مشاركتهما لاصدار « الآداب » ،حتى اذا جاءني الجواب بالترحيب، اطمأنت نفسي فانصرفت الى انجـاز اطروحتي ، وانا اتحرّق شوقا للعودة الى بلدي ..

• .. حتى اذا عدت ، كانت المجلة قد ترعرعت في عقلي ووجداني ، فكتبت افتتاحيتها في صيف ١٩٥٢ ، وبعثت بخطوطها العريضة ضمن رسالة الى زهاء ثلاثين اديبا عربيا كانت تربطني بمعظمهم روابط صداقة ادبيـة قديمة او حديثة ، اعرض عليهم الفكرة ، واستشيرهم فـي امـور الادب ، واطلب مشاركتهم في هيئة التحرير .

وجاءتني اجوبة اثنين وعشرين منهم مشجعة،مباركة، وان هي الا اسابيع ، حتى بدات تردني الابحاث والقصائد والقصص التي طلبت ، فأحتار في ايهـا اقدم ، وايها ارجيء ، واصاب بارتباك شديد بين مكتبي الصغير في « دار العلم للملايين » ومطبعـة « دار الكتب » ، واصاب بالارق والخوف والرهبة ..

... الى ان تلمس يدي العدد الاول من « الآداب »، فأحس بارتعاشة اصابعي على الورق ، واسمع خفقـات قلبي ، واغادر المطبعة خوفا من ان يلحظ العمال اضطرابي وتأثري ، حتى اذا خرجت الى الطريق متجها نحو مكتبي، لم اشعـر الا ويدي تضمّ العدد الى صدري ، ثم احسست بما يشبه الدمعة في عينيّ : لقد تحقق اذن أملي ، وخرج الى النور أعزّ حلم كان يراودني طوال سنوات . لقد ولدت «ابنتي» الاولى التي لن احبّ اولادي ، فيما بعد ، اكثر من حبي لهـا .

وانهض منجها الى خزانة المجموعات ، وتلامس اصابعي من جديد المجلدات الاثنين والعشرين ، فأصاب منها بمثل رعشة الاصابع الاولى لاوراق العدد الاول :ولكن اية مسافة طويلة هذه ، واية حقبة بعيدة !

وأحسّ بسيء من الكآبـة : صحيـح ان « الابنة » الكبرى قد نمت وترعرعت وادركت سنّ النضج والنضارة، ولكن من الصحيح كذلك ان « الأب » قد ادرك سن الكهولة ووخط الشيب فوديه.. فهل هو قادر بعد على ان يمنح ابنته كل ما كان يمنحها من رعاية وحب وحماسة ؟

الا يحق لهذا الجندي الذي يخوض المعركة منذ قرابة ربـع قرن ، ان يحسّ ببعض التعب ، وان يلتمس بعض الراحة التي يطلبها المحارب ؟

وألتفت الى رفيقة عمري ، ورفيقة « الآداب » منذ عامها الثالث ، فتقترب مني ، وتضع يدها علـى يدي ، فادرك انها فهمت ما يجول بخاطري ، واسمعها تقول :

ــ سنأخذ لنا اجازة .. بضعة ايام ..

ثم تضغط رفيقتي على يـدي ، وتضيف بحنان ، ولكـن بعزيمة :

ــ العدد الجديد ، سنبدأ بأعداده بعد الاجازة .

ورفعت سبابتها الى حيث المجلد الاخير ، فعجبت أن الاحظ للمرة الاولى انه لا يزال ثمة مسافة عريضة الـى يسار المجلد .. مسافة خالية فارغة تنتظـر ان تملأ فـي السنوات القادمـات ..

قالت رفيقتي :

ــ انها سنوات كثيرة بعد ، سنوات عمرنا الباقية هذه ..

واردفت تقول :

ــ ان من ملأ تلك المسافة الطويلة ، لا يستطيع ، حتى ولو اراد ، ان يبقي هذه خاليـة .. ان دور « الآداب » مستمر ، بل هو الآن اشد الحاحا من السابق .

خرجنا من المكتب ، يومذاك ، فطالعتنا سماء صافية وشمس دافئة ، فشعرنا بأن الاجازة التي نأخذها سوف نستغلها لنكتسب مزيدا من الشباب والنشاط والحماسة، لاستئناف مسيرة « الآداب » ،مسيرتها الشاقة ، الرائعة.

الصحافة .. وافساد الادب !

لا بد من ان نؤكد اليوم ما قاله طه حسين ، منذ ربع قرن ، من ان الصحافة تلعب دورا كبيرا في افساد الادب ..

وينطبق هذا أشد ما ينطبق اليوم على الصحافة اللبنانية ، يومية كانت ام اسبوعية !

ذلك ان معظم الذين يشرفون على الصفحات الادبية والفنية والثقافية بصورة عامة هم جهلة مغرورون ، او مبتدئون لا يملكون من مقوّمات الادب الا عدة هزيلة .

ومصيبة هؤلاء ، او المصيبة فيهم ، انهم ما يكادون يتسلّمون « صفحتهم » الادبية حتى يتربعوا على منبرها ويبدأوا باطلاق الاحكام واصدار قرارات التصنيف بأن هذا كاتب رديء ، وذاك اديب غير مبدع ، وذيّاك شاعر فاشل .. ولا يقدّم محرر الصفحة الادبية ، تبريرا لهذه الاحكام ، الا بضعة أسطر سريعة لا تتجاوز العشرة ، بحجة ان مجال الصحيفة اليومية لا يتسع للدراسات الموسعة ولا للابحاث المعمقة !

ولن تحتاج الى وقت كبير ولا الى جهد خاص لتكتشف ان معظم محرري الصفحات الادبية لا يحسنون كتابة العربية وقلما تخلو كتاباتهم من اخطاء في الصرف والنحو .. وهم لا يتورعون مع ذلك من تجريح كتابات المؤلفين الذين يتميزون بسلامة اللغة ورشاقة العبارة ونصاعة الاسلوب .

ان انعدام روح المسؤولية اصبح الصفة الطاغية لمعظم ما توردہ صحفنا اليومية والاسبوعية نقدا لكتاب او تحليلا لدراسة او تعليقا على مؤتمر او ندوة .. وربما كان مردّ ذلك الى ان الذين يتصدّون للعمل الادبي في هذه الصحف هم أنصاف مثقفين ممن سقطوا في الامتحانات المدرسية او حشروا في « الصفحة الادبية » لانهم لا يصلحون مخبرين محليين او معلقين سياسيين .. وانك لتصاب اليوم بالغثيان اذا خطر لك ان « تتسلى » بتقليب الصفحات الثقافية في الجرائد اليومة او المجلات الاسبوعية ، من فرط الغثاثة والتفاهة والسطحية !

نقول هذا لما لاحظناه طوال العام الماضي ، ونلاحظه كل يوم وكل اسبوع من احكام جارفة وتقييمات سخيفة للاعمال الادبية والمؤتمرات والندوات .. حتى غدا التجريح والتهجم الوسيلة الفضلى لهؤلاء « المحررين » لاجتذاب الانظار اليهم والتسلق على اكتاف الشعراء والكتّاب والقصاصين والروائيين ..

تقدّم مسرحية على احد مسارحنا في بيروت ، او يبثّ برنامج تلفزيوني ، او يعقد مؤتمر او ندوة .. فتسارع « الصفحات الثقافية » الى تغطية ذلك في اليوم التالي مباشرة ، وتتسابق في الادلاء بالاراء ، كما لتحقق « سبقا صحفيا » في الميدان ، فاذا بالجهد الذي يبذله الشاعر او القصاص او الباحث طوال اسابيع وشهور يذهب هدرا بجرّة قلم وشطحة خيال .. وكثيرا ما يعمد محرّر الصفحة ، وربما باسم مستعار ، الى الاستهزاء بالاثر المنقود والاستخفاف بصاحبه ، تظرفا او تفكها على حساب الجهد والعرق والمعاناة !

ان معظم « الصفحات الثقافيه » قد اصبحت اليوم آفه الثقافه والادب، لان الاقلام التي تحررها لا يتحمل معظمها ايه مسؤوليه ، وقلما يكون جديرا بالتصدي للتقييم والاحكام .

وتكاد الصحف اللبنانية ان تتفرد بهذه الظاهره .. فاذا تناولت اية جريده اجنبيه ، يومية او اسبوعية ، لتطالع صفحاتها الثقافية ،وجدت فيها خيرة النقاد وافضل الباحثين ، ممن انقضت عليهم سنوات طوال في ممارسة النقد والدراسة . اقرأ الصحف الفرنسية مثلا ، تجد في صفحاتها الثقافية الاسبوعية افضل النقاد الفرنسيين أمثال روبير كانترز وبيير هنري سيمون وكلود مورياك ور . م . البيريس وادموند مابيـي وسواهم ، واقرأ الصحف المصريه تجد في صفحاتها الادبية لويس عوض ومحمود امين العالم ورجاء النقاش وسامي خشبة وسواهم ..

اما صحفنا اللبنانية ، فمعظم الذين يحررون صفحاتها الثقافية مبتدئون لم يعانوا الكتابة الجادة ، بل قليلون هم الذين صدرت لهم كتب ذات قيمة .. ولا شك في ان اصحاب الصحف مسؤولون عما آلت اليه هذه الصفحات من انحدار وهبوط ، وافضل الف مرة ان يلغوا هذه الصفحات او يقلصوها او يجعلوها مرة في الاسبوع، بدلا من ان تكون يومية ،وان يعهدوا بها الى من يملك حسّ المسؤولية وعدة الاديب والناقد .

لقد انعقد في الشهر الماضي ، على سبيل المثال ، الملتقى الشعري الثاني في بيروت ، فراح معظم محرري الصفحات الادبية يتنافسون في تفشيل الشعراء : سقط الشاعر فلان ، اخفق الناقد فلان الخ .. ثم انتهوا الى الحكم بسقوط الملتقى الشعري كله ، ولولا بعض حياء لطالبوا بالغاء الشعر وشنق الشعراء !

ولو بحثت عن اي اثر نقدي لهؤلاء المحررين، او اية دراسة جادة في الشعر ، او مشاركة في رسم خريطة الشعر العربي الحديث ، لافتقدت كل شيء .. فكيف تراهم تصدوا لذبح الشعراء ، الذين اثبتوا جدارتهم بانتاجهم ، دون ان يرفّ لهم جفن ، او ترتجف يد ؟

ان ادبنا العربي الحديث يعاني من كثير من الطفيليات في الصحف اليومية والاسبوعية ، ولا بدّ لمؤرخي الادب والمعنيين بشؤونه في العالم العربي ، ولا سيما في لبنان ، من محاربة هذه الطفيليات والقضاء على هذه الآفة التي تفسد الادب وتهبط بمستواه وتحل الفجاجة والتسطح واللامبالاة محلّ الابداع والعمق وروح المسؤولية ..

سهيل ادريس